200712 MLU ecole LM

41

الإنساني

المغرب العربي

[ملف خاص]

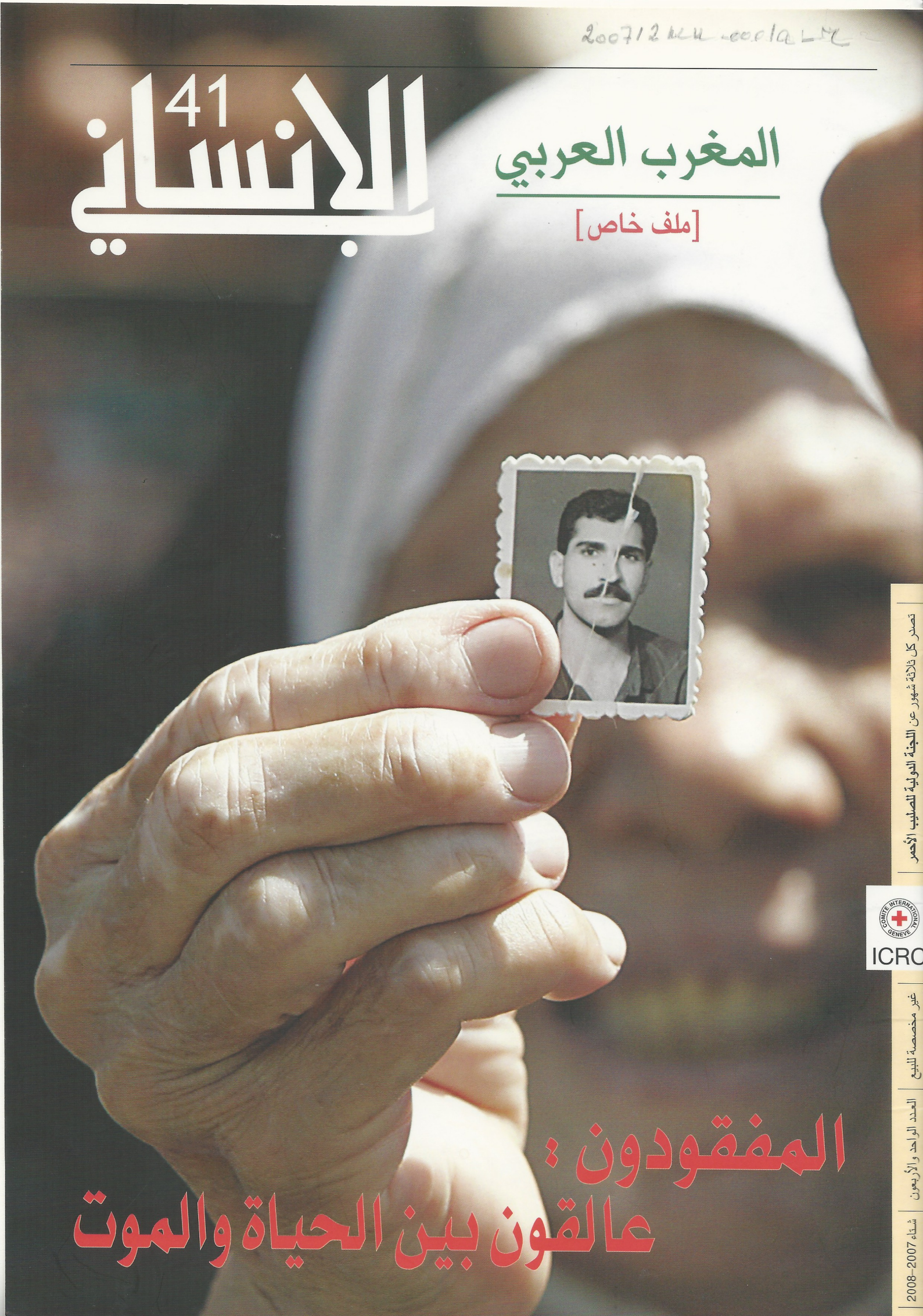

المفقودون: عالقون بين الحياة والموت

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر

ICRC

غير مخصصة للبيع

العدد الواحد والأربعون

شتاء 2007-2008

20071211 - 00016 - 2

العدالة حق

من لبنان

«**يا** ريت بتنخطفي أنت وبيرجع البابا»..!

بهذه الكلمات، افتتح **غسان**، ابن الخمس سنوات، ذلك النهار منذ 23 عامًا، بدلًا من «البونجور» المعهودة ككل صباح.

كم من **غسان**، في عداد الأولاد الذين خطف آباؤهم، جهر بأمنية مماثلة على مسمع أمه بهذا الوضوح..؟!!

كم من أم، من طائفة أهالي المخطوفين، تحملت النتائج مضاعفة لخطايا لم ترتكبها، إنما ارتكبت بحقها وأفراد عائلتها..؟!!

على حافة الانهيار، تجهد لتمسك نفسك بنفسك. تجدك أسير حالة تلزمك بابتلاع مصيبة، بطولها وعرضها وعمقها، لتظهر بحالتك الطبيعية جدًا ومن دون أن تفقد طابعك المرح بالأساس..

مع كل القسوة والضراوة التي ترافق الحروب عادة، لم أحسب يومًا أنها ستختارنا هدفًا مباشرًا، تتدخل في تفاصيل يومياتنا، تخلخل استقرارنا، تبعثر أحلامنا، تعبث بكل ما نسجناه، خيطًا خيطًا وعقدة عقدة، من حب ودفء وطفلين لم يتح لهما أن ينعما بوفر من هذا الزاد..

عدنان كان الضحية المباشرة. حصل ذلك نهار 24 سبتمبر/أيلول 1982، الساعة الواحدة بعد الظهر. كنا نعد الغداء معًا، **زياد** و**غسان** مختليان مع التليفزيون، يتابعان، بشغف، شريطًا من الصور المتحركة، عندما قرع باب البيت. شخصان مدنيان، مسلحان، إضافة إلى مسدسين مصوبين نحو رأس **عدنان**، ببطاقتين رسميتين. اقتاد الرجلان زوجي، بحجة إجراء تحقيق بسيط في حادث سير، مطمئنين بأن ذلك لن يتجاوز الدقائق الخمس ثم يعود.

عدنان لم يعد حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر. يبدو أن التحقيق في هذا الحادث (الذي من المؤكد أنه لم يحصل)، لم ينته بعد..

بدورنا، بتنا أنا و**زياد** (6 سنوات) و**غسان** (3 سنوات) ضحايا هذا الظلم، كما أبو عدنان وأمه وإخوته..

ما زال كل منا ينتظر، على طريقته، عودة **عدنان**، أو خبرًا منه، أو عنه..!!

انتظاري لم يكن دائمًا هادئًا، فقط في ساعات الليل، كنت «أحظى» بهدوء نسبي، بعد أن يخلد الأولاد للنوم، أقضيه مع «عدنوني» في جلسة حوارية طويلة، لم تخل من بعض التشنج أحيانا.

انتظاري لم يكن حزينًا إلا في تلك الساعات، إياها، حيث كان الدمع يجد طريقًا آمنًا له، والألم كان يتبدى عاريًا، وذلك في منأى عن أعين صغيريّ، الأقارب والفضوليين.

برنامج البحث عن **عدنان** كان يلي دوام عملي في التدريس في إحدى المدارس الثانوية الرسمية في بيروت.

لم أترك باب مسؤول إلا وطرقته، سياسيًا كان أو عسكريًا، رسميًا كان أو حزبيًا. لم أوفر رؤساء الطوائف الروحية. قابلت، حتى قادة الميليشيات المتقاتلة، مراهنة على بقايا ذرة من الإنسانية لديهم.

ملاحقاتي اليومية لم تثنني عن متابعة أحوال **زياد** و**غسان**.. حاولت، في البداية، تحييدهما ما أمكن عن حقيقة ما حصل، ليس بداعي الكذب، بل ظنًا مني أني أحميهما، أحجب أذى افترضت أنهما أعجز عن تحمل وطأته. قررت أن أبعد هذا الكأس المر عن متناولهما. لمَ لا، ما دام **عدنان** سيعود سريعًا إلى البيت على حد قول ذينك المسلحين..؟

ما أصعب فبركة الحكايات، اختلاق الأعذار لتبرير غياب شخص حبيب خرج دون إعلان، دون وداع، دون قبلة على الأقل.. فكيف، إذا كانت هذه الأكاذيب موجهة للأقرب إليك من مسام جلدك..؟ كيف، إذا كنت غير مدرك مسبقًا لمفاعيل ذلك العكسية، لحظة تدق ساعة الحقيقة.. التي لا بد من أن تدق يومًا..؟!! وقد دقت...

تضاعفت المصيبة، عندما ترافق اختفاء **عدنان** باختفاء راتبه الشهري. نشأت حاجة ملحة لإيجاد عمل إضافي، يساهم مردوده مع ما أتقاضاه في سد الاحتياجات الأساسية..؟ لم تعد تتسع ساعات النهار لأداء كل المهام، كم تمنيت لو تطول، كم تواصل ليلي بنهاري..!

ما زلت أتحسس وقع الصفعة على وجهي، ما زالت آثار بصمات ذلك الضابط «النظامي»، لكن وشمًا لم يزل محفورًا في داخلي. الجريمة كانت أني تجرأت، ذلك الصباح، على تقدم صفوف المحتشدين في الملعب البلدي لأداء صلاة العيد، حتى المنصة الرئيسية طالبة من مفتي الجمهورية أن يدرج قضيتنا في خطبته. المفتي لبى ندائي، والضابط لبى نداء الواجب إزاء «جريمتي الموصوفة».

لم أذق طعم الانتظار مرة. أصلًا، لم أكن أعرف أن له طعمًا. كان مرًا.. موجعًا.. ثقيل الوطأة كان. الانتظار يتلبسك، يمضغك كعلكة يتسلى بها، لا يبصقها. يتفنن في الإمساك بمقاليد عقلك وأحاسيسك. يجعلك، أحيانًا، أسير هواجس وتخيلات وصلت إلى حد اعتبار نباح كلب، ذات ليل، تحذيرًا للناس من غريب قدم إلى الحي، وإشارة لي بعودة **عدنان**.

لم أملك مالًا ولا وقتًا لاستشارة اختصاصيين، كي أعرف السبيل الصحي للتعامل مع طفلين أمام وضع في غاية التعقيد والالتباس، كي أستطيع الخروج من حدة الصراع الداخلي الذي كان يتنازعني بشأن الإقرار أو الاستمرار بالتكتم عن حقيقة ما جرى. أسئلة **زياد** و**غسان** كانت لا تنتهي، أنا لا أملك أجوبة عليها.

هل من المفيد أن أتحدث عن عمليات الابتزاز،

AFP

المالي منها والعاطفي، التي تعرضت لها تحت هاجس العثور على ضالتي..؟

هل من المفيد أن أتحدث عن بعض المغامرات التي انجررت في متاهاتها، عن الأفخاخ التي نصبت لي، والتي كان يمكن أن تودي بي إلى نفس المصير المجهول..؟

هل أتحدث عن التعددية التي سكنتني.. فأصبحت «ودادات»، كل واحدة تختلف، بشخصها وطباعها وسلوكيتها، عن الأخرى: فمرة حادة

لكلّ الناس في وجه أي ظالم

عنيفة، مرة لينة دافئة وأخرى خائفة وذلك وفقًا لكل موقع وشخص ولقاء تواجدت فيه.. وفي كل المرات، كنت وحيدة، بلا كتف، بلا حماية.

عندما بدأت البحث عن **عدنان**، وجدت نفسي، بعد فترة وجيزة، أبحث عن جميع الذين خطفوا وفقدوا في الحرب. كان ذلك من خلال أهاليهم الذين التقيتهم إثر نداء وجهته عبر إحدى الإذاعات المحلية. ما زلنا، منذ 17 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 1982 وحتى تاريخه، نتابع المسيرة معًا من خلال انتظامنا في إطار سميناه «لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان».

في زمن الحرب، لم تمنعنا نيرانها من الصراخ نطالب المسؤولين بالعمل الجدّي من أجل إطلاق سراح جميع المخطوفين. جاء ردهم باهتًا يعلن العجز عن تحقيق ذلك، والذريعة: تراجع سلطاتهم أمام سلطة الميليشيات المتقاتلة

وداد حلواني*

وسطوتها. وخير تعبير يلخص السلوك الرسمي إزاء قضيتنا ما قاله لنا رئيس مجلس الوزراء آنذاك في أحد اللقاءات «العين بصيرة واليد قصيرة»!!

في زمن السلم، عادت الدولة، لكن من خطفتهم الحرب لم يعودوا. طالبنا بحقنا بمعرفة مصير هؤلاء وذلك بتحرير الذين ما زالوا منهم على قيد الحياة، وتسليم رفات الموتى إلى ذويهم، لتقام مراسم دفنهم والحداد عليهم.. أو ليس إكرام الميت في دفنه؟.

جاء الرد الرسمي متشعبًا، مريبًا. مرة اتهمنا بأن الاستمرار بهذه المطالبة، نكون كمن يسعى إلى إشعال فتيل حرب جديدة، ومرة أتحفنا بتعذر تحقيق ذلك طالما أن العدو الإسرائيلي يحتل أجزاء من أرض الوطن، ومرة بأن الوجود الأجنبي يعيق الكشف عن الحقيقة وتحقيق العدالة.

تحرر لبنان من الاحتلال الإسرائيلي في 25 مايو/أيار العام 2000. انسحبت القوات السورية في 26 أبريل/نيسان 2005. لكن المخطوفين والمفقودين ما زالوا مجهولي المصير حتى تاريخه.

إن ما يجري اليوم في لبنان يحمل مفارقة عجيبة غريبة، على خط سير هذه القضية، لا يمكن أن يتصورها عاقل!! فمطلب الحق بمعرفة الحقيقة وتحقيق العدالة الذي حملنا لواءه باللحم الحي على مدار ثلاثة عقود تقريبًا، بات يتردد اليوم على لسان المسؤولين من بينهم أمراء الحرب، مضيفين إليه ضرورة إقامة محكمة دولية خاصة بلبنان..!!

أن يطالبوا بالحق بمعرفة الحقيقة، ولو بعد سبات طويل أمر يبشر بالخير. أن يناضلوا من أجل محاكمة القتلة مطلب محق. لكن المعيب أن تنحصر مطالبتهم، فقط، بمعرفة قتلة رئيس الحكومة السابق، **رفيق الحريري**، وسائر الشخصيات التي جرى اغتيالها لاحقًا.

الأكثر عيبًا واستهجانًا أن يصدر هذا الكلام عن أمراء حرب ما زالوا يتنصلون حتى اليوم من مسؤولياتهم.

والأخطر في الموضوع أن ذلك يشكل إنذارا مفاده أن الحقيقة والعدالة أصبح لها بالنسبة إلى الحكام في بلدي معنيان: الأول الذي يتبنونه هو أن العدالة هي عدالة الشخصيات، عدالة القادة وكبار القوم..!! أما المعنى الثاني الذي نتبناه نحن هو أن العدالة هي عدالة الناس العاديين في وجه كل ظالم، كائنًا من كان..!!

هذه الازدواجية في المعاني، هي التي أجازت لأمراء الحرب اليوم، الذين تسببوا بالأمس بمآسينا، أن يتبوأوا مراكز القرار في زمن السلم، هي التي أجازت لهم المفاخرة بماضيهم دون أي مساءلة، أو أي مراجعة ذاتية، أو حتى اعتذار من الضحايا.

إن مفهوم العدالة في بلدي هي عدالة المشاهير، ومطلوب تحقيقها بأي ثمن، بخلاف الناس العاديين الذي يجب طمس قضاياهم ونسيانهم أيًا كانت فظاعة الجرم المرتكب بحقهم حتى لو بلغ حد المقبرة الجماعية..!! علمًا أن العدالة الدولية في هذا المجال ليست أفضل حالًا أو أقل استنسابية من عدالة الدولة اللبنانية..!!

نعم، إن ما توصلت إليه مع رفيقاتي في رحلة البحث عن أحبائنا، والمستمرة منذ سبعة وعشرين عاما، هو إعلان الدولة بأن لبنان كله مقابر جماعية، فكفى مطالبة بأموات..!!

ما توصلنا إليه، هو إعلان أمراء الحرب، بأنهم قتلوا المخطوفين لديهم، فذلك كان منطق الحرب، كفى مطالبة، عليكم قبول منطق السلم..!!

قرارنا أن المعركة مستمرة، من أجل معرفة الحقيقة، كل الحقيقة، من أجل تحقيق العدالة، العدالة لجميع الناس، من أجل نبش كافة المقابر الجماعية والتعرف على هويات أصحابها، من أجل إدانة الجرائم ضد الإنسانية..

ما يزيدنا إصرارا هو أن طمس قضيتنا ليس طمسًا للعدالة فحسب، بل سماح باستمرار الاعتداء، وإجازة مرور لتكرار جرائم الخطف.

ربما لن يعود **عدنان**... ربما لن يعود 17000 مخطوف ومفقود..

لكن حبي لولدَي يجعل معركتي مستمرة حفاظًا عليهما من الخطف.

معركتنا مستمرة حفاظًا على أولاد جميع الذين خطفوا وفقدوا في لبنان.

مستمرون حفاظًا على جميع أبناء الوطن..

حفاظًا على الوطن ●

(*) سيدة لبنانية خطف زوجها خلال الحرب الأهلية (1975–1990)، وهي اليوم رئيسة «لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان»، وتظهر في أقصى يسار الصورة.